ENI CBCMED
Cooperating across borders in the Mediterranean

Project funded by the EUROPEAN UNION

REGIONE AUTÒNOMA DE SARDIGNA
REGIONE AUTONOMA DELLA SARDEGNA

غرفة التجارة والصناعة والزراعة
Chamber of Commerce Industry and Agriculture
of Beirut and Mount-Lebanon في بيروت وجبل لبنان

AUT

iHERITAGE

This publication has been produced with the financial assistance of the European Union under the ENI CBC Mediterranean Sea Basin Programme

إصدار مشترك بين الجامعة الأميركية للتكنولوجيا (AUT) وقسم الفنون والآثار في الجامعة اللبنانية والدكتورة ندى الياس

جبيل عند نشوء الحياة المستقرّة

الدكتورة ندى الياس

قائمة المحتويات

الملف الشخصي للباحثة ____ الصفحة ٢

مقدمة ____ الصفحة ٣

الأُطر الزمنيّة ____ الصفحة ٨

مستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث ____ الصفحة ٩

الهندسة المعماريّة في جبيل خلال العصر الحجري الحديث ____ الصفحة ١١

الحياة في جبيل خلال العصر الحجري الحديث ____ الصفحة ١٤

شعائر الموت في جبيل خلال العصر الحجري الحديث ____ الصفحة ١٨

خاتمة ____ الصفحة ٢٢

مراجع ____ الصفحة ٢٣

الملفّ الشخصي للباحثة
ندى الياس

الأستاذة المساعدة ندى الياس:
منسّقة برامج الماستر
قسم الفنون والآثار
الجامعة اللبنانيّة
عمادة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الدكوانة – بيروت
البريد الإلكتروني: nada.elias*ul.edu.lb

مجال اختصاصها:
علم آثار الشرق الأدنى
الأنثروبولوجيا البيولوجيّة
الطقوس المدفنيّة والمعتقدات الدينيّة
التفاعل بين الأنثروبولوجيا والتاريخ والفنّ وعلم الآثار

التحصيل العلمي:

دكتوراه في الأنثروبولوجيا البيولوجيّة، UMR 5199 Pacea (أنثروبولوجيا الشعوب القديمة والحاليّة)، جامعة بوردو (١٨ مايو ٢٠١٦). عنوان الرسالة: الطقوس المدفنيّة والهويّات البيولوجيّة في بيريتوس وبوتريس خلال الفترة الرومانيّة (لبنان، القرن الأوّل ق.م. – القرن الرابع م.)، (باللغة الفرنسيّة) (متاح على الإنترنت على these.fr).
ماستر ٢ في الأركيولوجيا الكلاسيكيّة مع مرتبة الشرف العليا، جامعة باريس ١ بانتيون سوربون. عنوان رسالة الماستر: الطقوس المدفنيّة خلال العصر الروماني في بيريتوس: موقع الصيفي٢٣٧ المدفني. المقاربات التاريخيّة والأثريّة والأنثروبولوجيّة، بالفرنسيّة، (يونيو ٢٠١١).
ماستر ١ في الأركيولوجيا الكلاسيكيّة مع مرتبة شرف (ممتاز)، جامعة باريس ١ بانتيون سوربون. عنوان رسالة الماجستير: الطقوس المدفنيّة في صور وصيدا (لبنان) من العصر الحديدي حتّى العصر الروماني: ١٢٠٠ ق.م. ٣٠٠ م. المقاربات التاريخيّة والأثريّة والأنثروبولوجيّة، بالفرنسيّة، (أيلول ٢٠١٠).
إجازة في الفنون والآثار، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الفرع الثاني – الفنار، الجامعة اللبنانيّة (تمّوز ٢٠٠٨).

الملخّص:

جرت عمليّات تنقيبٍ أثريّة كثيرة في جبيل على مدى أكثر من قرنٍ من الزمن. يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على جبيل خلال العصر الحجري الحديث وسرد قصّة المجتمعات البشريّة فيها عند نشوء الحياة المستقرّة. ويتطرّق هذا البحث أيضاً إلى مواضيع متعدّدةٍ نذكر منها تأسيس جبيل وتطوّرها، ومراحل تطوّر الهندسة المعماريّة، وتوسّع الاستيطان واستمراره فيها من العصر الحجري الحديث إلى العصر النّحاسي. علاوةً على ذلك، يغوص هذا البحث في دراسة مسائل مثل الحياة والموت في جبيل ما قبل التاريخ، ويستعرض أصول هذه المدينة وتراثها من منظارٍ متعدّد الاختصاصات يربط ما بين علم آثار ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا. كما تتضمّن هذه الدراسة رسوماتٍ وصوراً أثريّةً قديمة، فضلاً عن رسوم اعادة بناءٍ جديدةٍ أعدّت لتعزيز فهمنا لمدينة جبيل خلال العصر الحجري الحديث.

الكلمات الدالّة:

جبيل، العصر الحجري الحديث، ثورة العصر الحجري الحديث، الحياة والموت، الهندسة المعماريّة، الحياة الحضريّة، القرى الأولى، الزراعة، الصيّادون، صيد الأسماك، البيئة الطبيعيّة، الثقافة الماديّة، سلسلة التوريد، الإبداع، الطقوس المدفنيّة.

المقدّمة:

تُعتبر جبيل، المُدرجة ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي (تاريخ التسجيل: ١٩٨٤)، واحدةً من أقدم المدن في العالم ومن بين المواقع النادرة التي ظلّت مأهولةً بشكلٍ مستمرٍّ منذ تأسيسها في المرحلة الأولى التي شهدت ولادة الحياة الحضريّة وبداية الزراعة حتّى يومنا هذا.

وتقع مدينة جبيل(**34°07'08"N–35°38'46"E**)على بُعد حوالي ٤٠ كيلومتراً شمال شرق بيروت، على ساحل البحر الأبيض المتوسّط للبنان **(الصورة ١)**. وتقع هذه القرية القديمة على نتوءٍ صخريٍّ من الحجر الرملي الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين متراً **(الصورة ٢)**، وإلى جنوب خليجٍ صغير، كان بمثابة الميناء القديم وما زال يُستخدم كميناءٍ لصيد الأسماك. كما يبلغ إجمالي مساحة الموقع ١٠ هكتارات.

وشهدت مدينة جبيل على مجموعةٍ كبيرةٍ من عمليّات التنقيب والدراسات الأثريّة على مدى أكثر من قرنٍ من الزمن (بين العامَين ١٨٦٠–٢٠٢٣). وكانت عمليّات التنقيب الأثريّة الأولى في موقع جبيل القديم ضمن سلسلةٍ من البعثات الفرنسيّة. وقد انطلقت هذه الأعمال في ٣ ديسمبر ١٨٦٠ تحت اشراف المؤرّخ والكاتب الفرنسي إرنست رينان، وبمساعدة السريّة الرابعة من وحدة المشاة السادسة عشرة (BCP) التابعة للجيش الفرنسي في حقبة الإمبراطوريّة الثانية (Renan, ١٨٦٤). بعد ذلك، بدأ بيير مونتيه أعمال التنقيب في العام ١٩٢٠، وواصلها موريس دونان في العام ١٩٢٦ حتّى منتصف السبعينيّات، وامتدّت لأكثر من خمسةٍ وأربعين عاماً، ولكنّها توقّفت لفترةٍ مؤقّتةٍ بسبب الحرب الأهليّة اللبنانيّة. وأفضت هذه البعثات الأثريّة المكثّفة إلى تنقيب ما لا يقلّ عن ١.٥ هكتاراً من مساحة هذا الموقع وصولاً إلى الصخر، وكشفت عن الاستمراريّة التاريخيّة الملحوظة لموقع جبيل منذ ٨٠٠٠ عام (تمتدّ من أواخر العصر الحجري الحديث إلى الآن)، **(الصورة ٣)**. وجرت أعمال تنقيبٍ أثريّة أخرى على يد خبراء لبنانيّين في السنوات القليلة الماضية، ومؤخّراً، يقوم متحف اللوفر بالتنقيب في جبيل بالشراكة مع المديريّة العامّة للآثار (DGA)، ولكنّها صبّت تركيزها على فترة العصر البرونزي.

وقد أدّت أعمال التنقيب التي قام بها دونان إلى اكتشاف طبقاتٍ أثريّةٍ مختلفةٍ تعود إلى عصورٍ متعدّدة، بما في ذلك الطبقات التأسيسيّة لقرية العصر الحجري الحديث، وهي الأقدم في الموقع. فمنذ حوالي ٩٠٠٠ سنة، أسّست جماعات من الصيّادون قريةً صغيرةً بجوار البحر خلال العصر الحجري الحديث، ولا تزال بعض بقاياها موجودةً في الجزء الغربي من المدينة الأثريّة **(الصورة ٣: ١)**. تمّ بناء بيوت/أكواخ هذه القرية الصغيرة التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، من خليّةٍ واحدةٍ ومن أرضيّاتٍ مطليّةٍ بملاط من الكلس **(الصور ٤–٥)**. وقد صَنع السكّان الأوائل كميّةً كبيرةً من الأدوات (الحجريّة، والعظميّة، والفخاريّة، والحُلي) فضلاً عن الأسلحة التي يعود تاريخها إلى تلك الحقبة. علاوةً على ذلك، كانت الطقوس المدفنيّة خلال هذه الفترة مترابطةً ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الدينيّة. واستمرّ هذا الأسلوب من الحياة إلى العصر النّحاسي (٤٥٠٠–٣٠٠٠ قبل الميلاد)، على الرغم من اعتماد طقوسٍ مدفنيّةٍ جديدةٍ تتضمّن دفن الموتى في جِرارٍ فخاريّةٍ كبيرةٍ تحتوي أيضاً على لُقى أثريّة.

ويَهدُف هذا البحث إلى تسليط الضوء على مختلف جوانب الحياة في جبيل، بما في ذلك ظهور المجتمعات المستقرّة، والتطوّر المعماري، وتوسّع السكن استمرارية الحياة من العصر الحجري الحديث إلى العصر النّحاسي. كما يتطرّق إلى مواضيع أخرى نذكر منها الحياة والموت في جبيل في العصر الحجري الحديث ويستعرض أصول هذه المدينة القديمة وإرثها العريق من خلال عدسات أركيولوجيا ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا. بالإضافة إلى ذلك، ستشتمل الدراسة على صورٍ ورسوماتٍ أثريّةٍ قديمةٍ مع اقتراح رسوم إعادة بناءٍ جديدة.

الصورة ١: خريطة جغرافيّة عامّة للمواقع الأثريّة التي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث والتي تتضمّن مدافن في أرضيّات المنازل. تمّ إنشاء الخريطة باستخدام نظام **ArcGIS 10.4.1**. مصادر الخريطة: معهد أبحاث النُّظم البيئيّة، هيئة المسح الجيولوجي الأميركيّة، الإدارة الوطنية. للمحيطات والغلاف الجوّي. إعداد: ندى الياس

[1] Montet, P., 1928.
[2] Dunand, M., 1939, 1954, 1968, 1973.

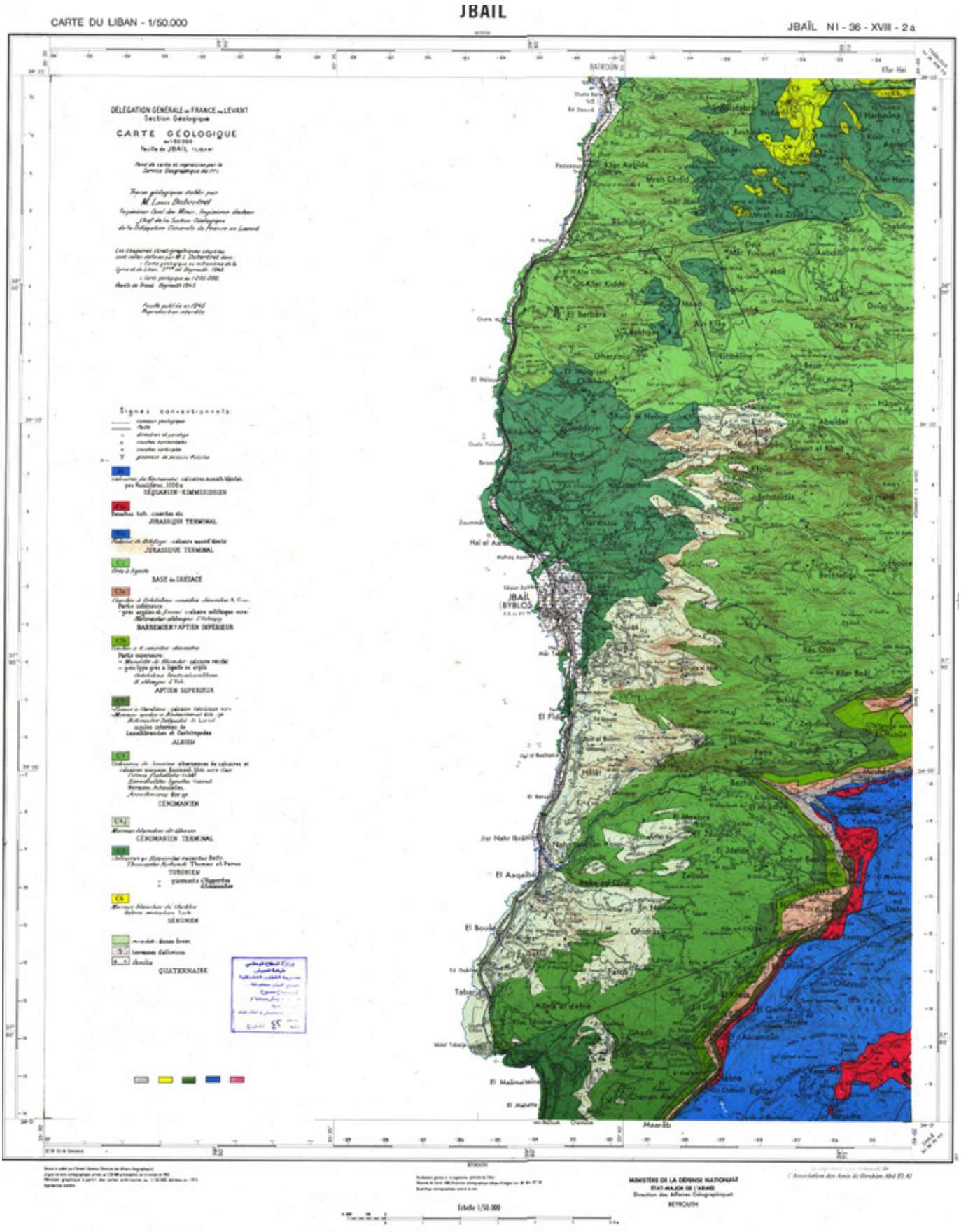

الصورة٢: خريطة دوبرتريه الجيولوجيّة لجبيل التي يعود تاريخها إلى العام ١٩٤٥ (دوبرتريه، ١٩٤٥).

الصورة ٣:

صورة جويّة لموقع جبيل وقد تمّ ترقيم المعالم الأثريّة عليها (استخدمتصور معهد أبحاث النُّظم البيئيّة، مكسار تكنولوجيز، جيوآي، إرث ستار جيوغرافيكس، والمركز الوطني للأبحاث الفضائيّة/ إيرباص للدّفاع والفضاء، ووزارة الزراعة في الولايات المتّحدة، وهيئة المسح الجيولوجي الأميركيّة وأيرو غريد، وصور مجتمع مستخدِمي نُظم المعلومات الجغرافيّة (سبتمبر ٢٠٢٣)

١- مستوطنة العصر الحجري الحديث (٦٩٠٠-٤٥٠٠ ق.م.).

٢- بيوت العصر النّحاسي.

٣- عين الملك (منبع المياه)(٤٥٠٠- ٣٠٠ ق.م).

٤- بقايا بيوت (٣٢٠٠-٣٠٠ ق.م).

٥- معبد الأنصاب الذي كان يعلو المعبد الذي على هيئة حرف L (بعد ٢٧٠٠ ق.م).

٦- المعبد الذي على هيئة حرف L (٢٧٠٠ ق.م.).

٧- بقايا معبد بعلة جبيل (٢٧٠٠ ق.م).

٨- بقايا السّور القديم (قبل ٢٥٠٠ ق.م).

٩- بقايا البوّابة الرئيسيّة الشماليّة الشرقيّة للمدينة (العصر البرونزي: الألفيّة الثالثة).

١٠- الأحياء السكنيّة في عصر البرونز.

١١- أساسات بيوت العصر البرونزي.

١٢- السّور المسنّن (العصر البرونزي: الألفيّة الثالثة).

١٣- بقايا القصر الكبير (العصر البرونزي: الألفيّة الثالثة).

١٤- أساسات بيوت في حقبة ما قبل الأموريّة (٢٥٠٠ - ٢١٥٠ ق.م).

١٥- أساسات البيوت من العمر الأموري (٢١٥٠- ٢٠٠٠ ق.م).

١٦- مقالع الفترة الأموريّة. ١٧. المدافن الملكيّة (الألفيّة الثانية).

١٨- زلاقة من عصر الهكسوس (١٧٢٥ - ١٥٨٠ ق.م).

١٩- القلعة الفارسيّة.

٢٠- الطريق الروماني .(٥٥٥ - ٣٣٣ ق.م).

٢١- سبيل الماء الروماني (القرن الثاني الميلادي).

٢٢- المسرح الروماني (٢١٨م).

٢٣- القلعة الصليبيّة التي أقيمت على الحصن الفاطمي (القرن الثاني عشر الميلادي).

٢٤- البيت اللبناني التقليدي (من القرن التاسع عشر).

الصورة ٤:

إعادة بناءٍ صوريّة لمستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث (الصورة أحدثتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

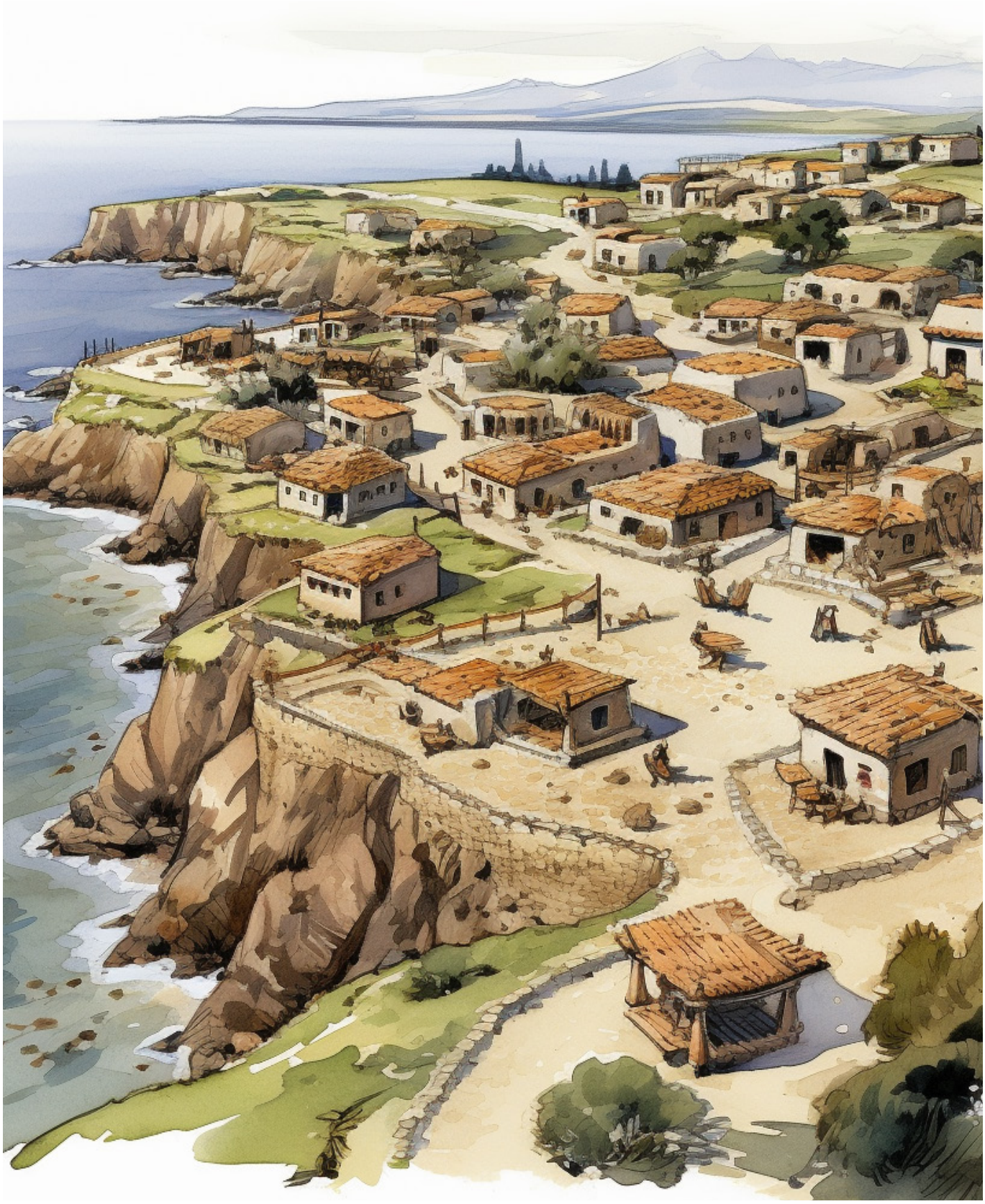

الصورة ٥:
إعادة بناءٍ صوريّة لمستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث (الصورة أحدثتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

الأُطر الزمنيّة:

منذ حوالي ٩٠٠٠ سنة، شهد العالم ثورة العصر الحجري الحديث. وساهم اعتدال المناخ ودفؤه، بالإضافة إلى وجود الأنهار الكبيرة، في جعل منطقة الهلال الخصيب أرضاً وفيرةً للحياة، مع وفرةٍ كبيرة في النباتات البريّة والحيوانات. وجعلت هذه الوفرة أراضي الهلال الخصيب ملائمةً للحياة البشريّة، وأدّت إلى إنشاء أولى المستوطنات الدائمة. وبالتالي، كانت هذه المنطقة مهد القرى والمدن الزراعيّة ومهد التاريخ.

خلال العصر الحجري القديم، لجأ السكّان الأوائل في البداية، رجالاً ونساءً وأطفالاً، إلى الكهوف والملاجئ الصخريّة التي يكتنفها الساحل الصخري. وفي وقتٍ لاحق، مع بداية الزراعة، استقرّوا تدريجيّاً على طول شاطئ البحر، ممّا وفّر لهم مجموعةً من الظروف الملائمة. ولعب البحر دوراً أساسيّاً، حيث وفّر مناخاً معتدلاً، وإمكانيّة الوصول إلى موارد الصوّان القيّمة، وكان بمثابة مصدرٍ حيويٍّ للغذاء(Dunand, 1954: 5). وكانت هذه الأرض الخصبة التي تمتدّ على مسافةٍ صغيرة، تضمّ إمكاناتٍ زراعيّةً كبيرةً لمجتمعات العصر الحجري الحديث، حيث تحتوي على مصادر المياه العذبة والتربة الغنيّة. وتَمتدّ المنطقة الساحليّة من طرابلس، عبر جبيل، وصولاً إلى بيروت، وتحتضن مواقع قد يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث (Dunand, 1954: 8). ويُشير مصطلح العصر الحجري الحديث بالنسبة إلى دونان بشكلٍ خاصّ، إلى التجارب الزراعيّة وتربية الحيوانات الأولى في بيئةٍ كانت لا تزال تعتمد على الصيد والجمع، ويُشير العصر الحجري النّحاسي إلى المرحلة التي عرف فيها الإنسان طرق النحاس في البيئة الزراعيّة (Dunand, 1954: 5) . ويمثّل الانتقال من المجتمعات البدويّة/المترحّلة التي تعتمد على الصيد والجني إلى المجتمعات المستقرّة المُنتجة للغذاء، لحظةً تحويليّةً في عصور ما قبل التاريخ، وقد خلّف تأثيراتٍ عميقةً على المناظر الطبيعيّة، والموارد المستدامة، والتّفاعلات، والتنقّل، والتقدّم التكنولوجي، والسلوكيّات الاجتماعيّة، والمعتقدات الدينيّة (Maher, 2020: 32). وكشفت أعمال التنقيب عن الآثار التي تولّاها دونان عن وجود ثلاث مراحل من العصر الحجري الحديث ومرحلتَين من العصر النّحاسي (يشير إليها دونان باسم العصر الانيوليثي) في جبيل، كما هو مبيّن في الجدول ١ والصورة ٦.

المرحلة		التسلسل الزمني (كوفين ١٩٩٧)	جبيل (آرتين ٢٠٠٩)
النطوفيّة		١٢ ٥٠٠ – ١٠ ٠٠٠ ق.م.	–
العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّار أ	الخياميّة ثقافة تل المريبط ثقافة تل السلطان	١٠ ٠٠٠ - ٩ ٥٠٠ ق.م. ٩ ٥٠٠ - ٨ ٧٠٠ ق.م. ٩ ٥٠٠ - ٨ ٣٠٠ ق.م.	– – –
العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّار ب	العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّار ب المبكّر العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّار ب الأوسط العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّار ب المتأخّر	٨ ٧٠٠ - ٨ ٢٠٠ ق.م. ٨ ٢٠٠ - ٧ ٥٠٠ ق.م. ٧ ٥٠٠ - ٧ ٠٠٠ ق.م.	– – العصر الحجري الحديث المبكر ٦ ٤٠٠ – ٦ ٨٠٠ ق.م.
العصر الحجري الحديث الفخّاري أ	اليرموكيّة	٧ ٠٠٠ - ٦ ٣٠٠ ق.م.	نهاية العصر الحجري الحديث المبكّر ٦ ٤٠٠ – ٥ ٨٠٠ ق.م.
العصر الحجري الحديث الفخّاري ب – العصر النّحاسي المبكّر		٦ ٣٠٠ – ٥ ٠٠٠ ق.م.	العصر الحجري الحديث الأوسط ٥ ٤٠٠ – ٥ ٨٠٠ ق.م.
العصر النّحاسي الأوسط			العصر الحجري الحديث المتأخّر ٤ ٥٠٠ – ٥ ٤٠٠ ق.م.
العصر النّحاسي المتأخّر			العصر النحاسي المبكر ٣ ٧٠٠ – ٤ ٥٠٠ ق.م.
العصر البرونزي المبكر		٣ ٣٠٠ – ٢ ٠٠٠ ق.م.	لعصر النّحاسي المتأخّر ٣ ٧٠٠ – ٣ ٠٠٠ ق.م.

الجدول ١:
التسلسل الزمني للمراحل وتواريخها. تُمثّل كلّ فترةٍ ثقافةً معيّنة، ولكنّ التواريخ تقريبيّة وتختلف من موقعٍ إلى آخر. الفترات الممتدّة من العصر النّطوفي إلى نهاية العصر الحجري الحديث بحسب كوفين (١٩٩٧). أمّا بالنسبة إلى جبيل، فالتسلسل الزمني هو وفقاً لأرتين (٢٠٠٩: ١٣).

Neolithic Period			Chalcolithic (Eneolithic) Period	
Byblos			**Byblos**	
Early Neolithic	Middle Neolithic	Late Neolithic	Early Chalcolithic	Late Chalcolithic
6900 BC	5800 BC	5400 BC	4500 BC	3700 BC 3000 BC

الصورة ٦:
الجدول الزمني لعصور ما قبل التاريخ في جبيل بحسب دونان. الفترات الممتدّة من العصر الحجري الحديث المبكّر إلى العصر النّحاسي المتأخّر

مستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث:

تقع أقدم مستوطنة بين نبع ماءٍ وطرف نتوءٍ صخري ساحلي، ويعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث المبكّر **(الصور ٧ – ٨)**. ويبلغ عمق هذه القطعة من الأرض ٣٠ متراً، ويمتدّ طولها على مسافة ١٠٠ متر، وتتمتّع بموقعٍ استراتيجيٍّ على الواجهة البحريّة في أعلى نتوءٍ صخري (Cauvin, 1968: 40). كانت البيئة في مستوطنة العصر الحجري الحديث المبكّر خصبةً للغاية، إذ تمّ التأكّد من وجود بقايا القمح والشعير والزيتون والعدس والفول واللوز والتين والعنب والرمّان وأشجار الخرّوب في الموقع (Dunand, 1973: 35). وتشكّل الحيوانات البريّة نسبة ٤٠٪ من الحيوانات المتواجدة، فتشمل: الرنّة والأيل الأسمر الأوروبي البور واليحمور والغزال والخنزير البرّي مع وجود نسبةٍ قليلةٍ جدّاً من الدّببة وفرس النهر والتماسيح. وتمثّل الحيوانات الأليفة نسبة ٦٠%، بما في ذلك الأبقار والأغنام والخنازير والكلاب. كما شكّلت الأسماك أيضاً مصدراً كبيراً للغذاء. إذاً، يمكننا التحدّث عن مجموعةٍ سكّانيّةٍ مستقرّةٍ تعمل في الزراعة، ولكن حيث ظلّ الصيد البري وصيد الأسماك نشاطاً مهمّاً (Dunand, 1973: 35-36). وتحتلّ مستوطنة/قرية جبيل في العصر الحجري الحديث الأوسط **(الصورة ٨)** نفس مساحة العصر الحجري الحديث المبكّر، مع توسّعٍ طفيفٍ نحو الشرق (الداخل). ولا تزال المستوطنة تقع بين البحر ومصدر المياه (Cauvin, 1968: 41). أمّا في ما يخص العصر الحجري الحديث المتأخّر فيُظهر الاستيطان توزيعاً طوبوغرافيّاً مختلفاً مقارنةً بالفترات السابقة **(الصورة ٨)**. وتجدر الإشارة إلى أنّ الجزء الشمالي من المنطقة المسكونة سابقاً أصبح مهجوراً. وتوسّعت المستوطنة في العصر الحجري الحديث المتأخّر بشكلٍ كبيرٍ نحو الشرق والجنوب وباتت تضمّ نبع ماءٍ وأكثر (Cauvin, 1968: 42, Dunand, 1973: 127).

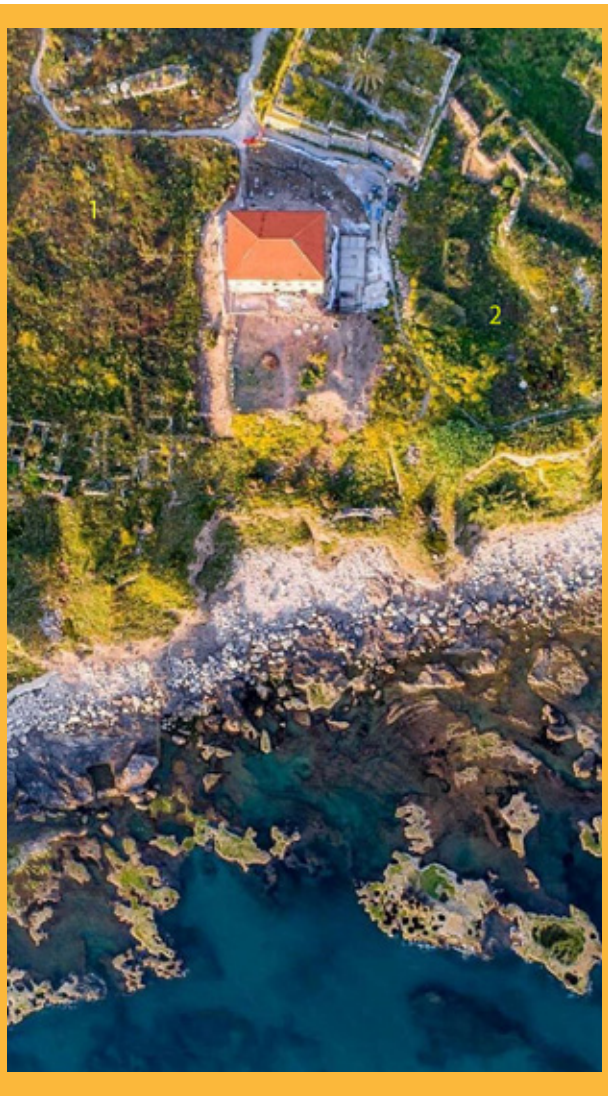

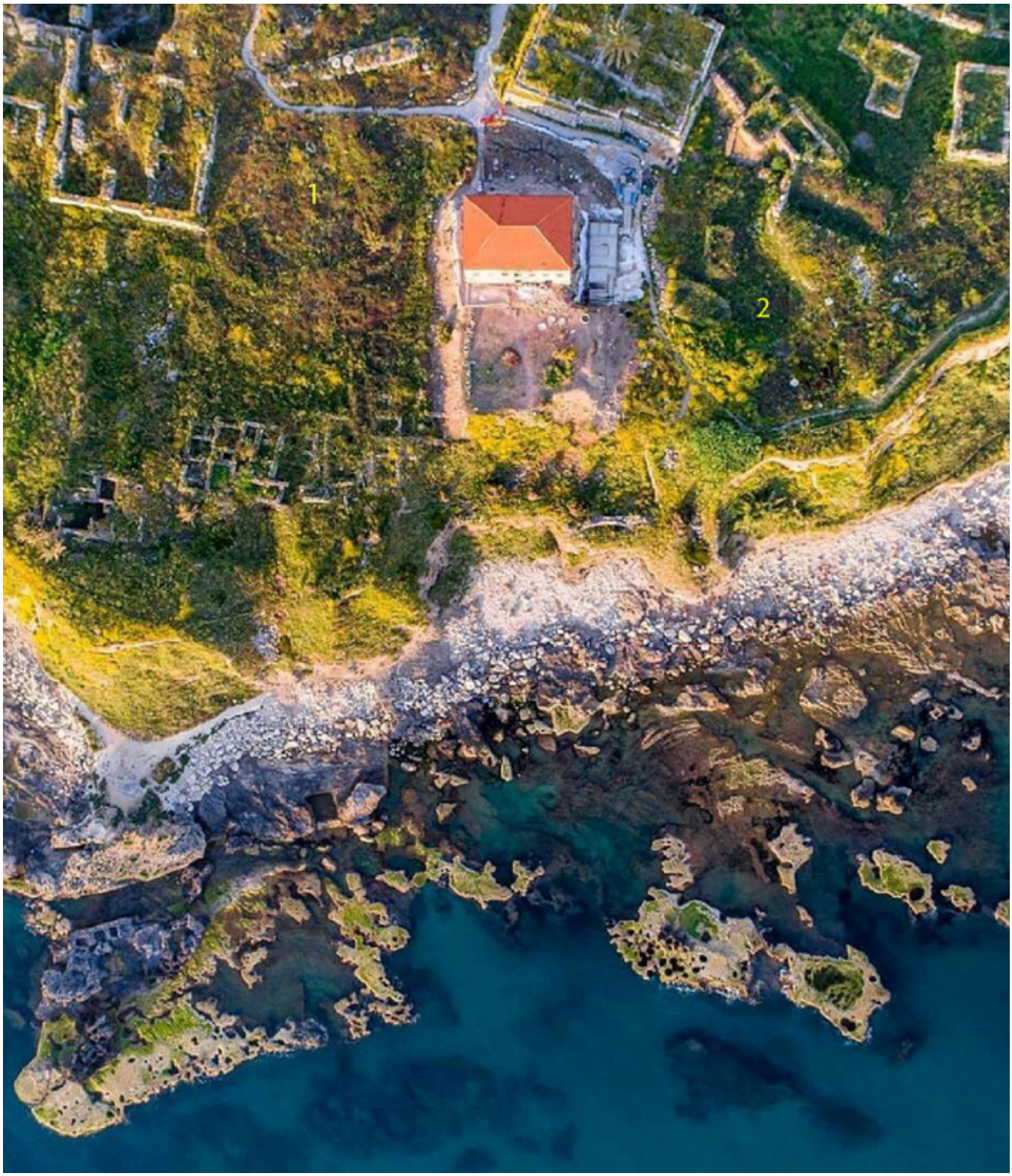

الصورة ٧:
صورة جويّة للمعالم الأثريّة: ١. مستقر العصر الحجري الحديث (٦٩٠٠–٤٥٠٠ ق.م.). ٢. بيوت العصر النّحاسي (٤٥٠٠–٣٠٠٠ ق.م.). (من قبل تصوير رامي رزق، ٢٠١٩).

الصورة ٨:
خريطة عامّة لمستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث (العصر الحجري الحديث المبكّر والأوسط والمتأخّر) (Dunand 1973: Tome V: Plates, Pl. H,b).

الهندسة المعماريّة في جبيل خلال العصر الحجري الحديث:

كما سبق وأشرنا، تقع جبيل خلال العصر الحجري الحديث إلى غرب النتوء الصخري، قبالة الواجهة البحريّة مباشرةً، ومن اللافت للنّظر أنّها لا تحتوي على أسوار دفاعيّة. فكان الشّير الصخري الطبيعي نفسه يوفّر حمايةً كافيةً للمستوطنة **(الصورة ٧)**.

كانت المنازل الأولى في مستوطنة جبيل خلال العصر الحجري الحديث، والتي لم يبقَ لها آثار معماريّة، عبارةً عن ملاجئ بسيطةٍ جدّاً تتكوّن من منازل مؤلّفةٍ من غرفةٍ واحدةٍ ومبنيّةً على أساسٍ حجريٍّ مصنوعٍ من الحصى المجمّعة من مجاري الأنهار. وكانت أسقف هذه الأكواخ مصنوعةً من أغصان الأشجار، ثمّ تمّ تلبيسها بالطين. بعدها، بدأ سكّان جبيل برصف الأرضيّات بملاط كلسي. وكانت هذه الغرفة محاطةً بجدرانٍ منخفضة الارتفاع، تتكوّن عادةً من طبقةٍ أو طبقتَين من الحجارة. ثمّ تمّ بناء أعمدةٍ من أغصانٍ منحنيةٍ على هذه الجدران لدعم الأسطح المبنيّة من أغصان الأشجار وجلود الحيوانات(Jidejian, ١٩٦٨ : ١٠) . وفي وقتٍ لاحق، ظهرت دلائل على وجود مستوطنةٍ أخرى بأرضيّات منازل مصنوعةً من التربة المدكوكة، بدلاً من الملاط الكلسي.

في الخلاصة، خلال العصر الحجري الحديث المبكّر، تمّ بناء البيوت/ الأكواخ المستطيلة (٤×٥،٥ م أو ٢×٤،٥ م) المؤلّفة من غرفةٍ واحدةٍ وأرضيّاتٍ مطليّةٍ بالكلس والتي كانت تجدَّد حتّى ستّ مرّات **(الصور ٩ – ١١)**. ولم تكن الأرضيّات أفقيّةً تماماً، إذ غالباً ما كانت تنحدر في اتّجاه انحدار التضاريس (Dunand, 1973: 13) . ومع الاقتراب من العصر الحجري الحديث الأوسط، أصبحت البقايا المعماريّة أكثر ندرة، وتتميّز بأرضيّاتٍ مطليّةٍ بالملاط الكلسي مع مدافن أكثر تعقيداً. وهكذا، تحوّلت الأكواخ الخاصّة بالعصر الحجري الحديث المبكّر إلى منازل (Dunand, 1973: 126)، حيث حافظت هذه المنازل على شكلها المستطيل ولكنّ أرضيّاتها هذه المرّة كانت ترابيّة **(الصورة ٢١)**. وأخيراً، في العصر الحجري الحديث المتأخّر، ظهرت منازل كبيرة مستطيلة الشكل، بدون أرضيّاتٍ مطليّة **(الصورة ٣١)** ولكنّ الجدران هذه المرّة كانت مبنيّةً بالحجر الرملي والحجر الكلسي(Dunand, 1973: 127). وكانت البيوت طويلةً وضيّقةً وتتكوّن من عدّة غرفٍ صغيرةٍ مرتّبةً على جانبَي جدارٍ واحد.

وتُعتبر – تبعاً لذلك – إحدى السّمات الأكثر تميّزاً لمستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث، بيوتها/ أكواخُها البسيطة المبنيّة من الحجارة والحصى، وتتّسم بشكلها المستطيل، كما تتألّف من غرفةٍ واحدة. ولعبت هذه البيوت دوراً مهمّاً جدّاً في مختلف جوانب حياة السكّان على الصعيد المادّي والاجتماعي والشعائري. فكانت هذه البيوت قريبةً من بعضها البعض مع وجود ممرّاتٍ بينهما في بعض الأحيان. واستخدم الناس هذه الممرّات للوصول إلى منازلهم من خلال مدخلٍ في الجانب الأطول (Dunand, 1973: 10) . واتّبعت جميع البيوت الموجودة في جبيل التخطيط العامّ عينه. كما استُخدمت الأرضيّات الداخليّة في هذه البيوت، لمجموعةٍ متنوّعةٍ من الأنشطة، بما في ذلك النوم والأنشطة المنزليّة الأخرى. إلى ذلك، فقد دفن السكّان موتاهم تحت هذه الأرضيّات. وتمّ بناء أعمدةٍ خشبيّةٍ سميكةٍ في الغرفة المركزيّة، لتساهم في تعزيز الهيكل ولإنشاء تقسيماتٍ داخليّةٍ محتملةٍ ولدعم السّقف.

وخلال العصر النّحاسي، تطوّرت البيوت/الأكواخ المستطيلة التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، نحو بيوتٍ مستطيلةٍ ذات زوايا مستديرة، وتحوّلت في النهاية إلى منازل دائريّةٍ على عكس بعض المواقع الأخرى في الشرق الأدنى، حيث اتّبع التحوّل النّمط المعاكس. ومع ذلك، ففي شاتال هويوك، على غرار بيوت العصر الحجري الحديث في جبيل، حافظت البيوت على شكلها المستطيل ولم تخضع لانتقالٍ سابقٍ من الهياكل الدائريّة إلى الهياكل المستطيلة (Hodder, 2021). من ناحيةٍ أخرى، وعلى عكس جبيل، لم يصبح شكل المنازل في شاتال هويوك دائريّاً في الفترات التابعة.

الصورة ٩:
بقايا البيوت ٢٢–٤٨، ٢٢–٥٠، ٢٨–١١ في جبيل التي تعود إلى العصر الحجري الحديث المبكّر (Dunand 1973: Tome V: Plates, Pl. IX: 1).

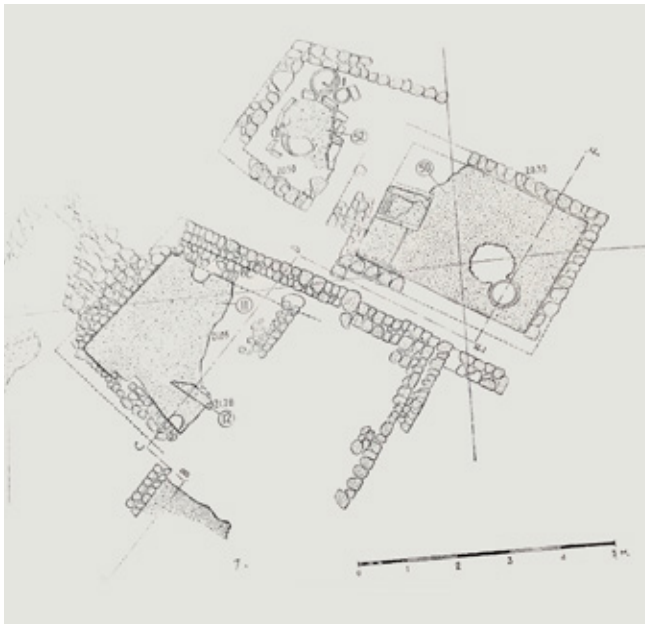

الصورة ١٠:
مخطط البيوت ٢٨–١١ و٢٢–٥٠ في جبيل وتعود إلى العصر الحجري الحديث المبكّر (Plan of Dunand 1973: 26 – fig.10).

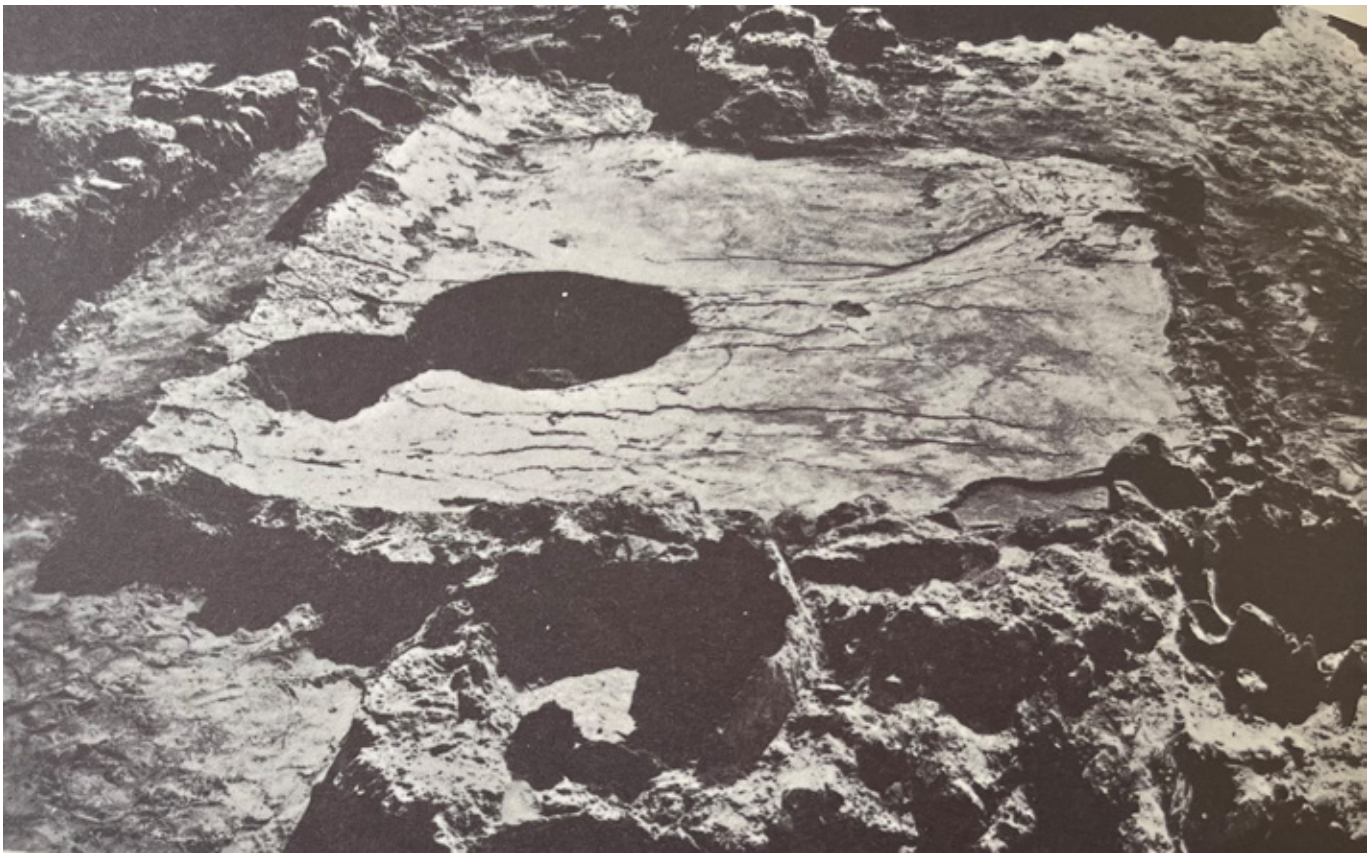

الصورة ١١:
أرضيّة البيت ٢٢–٥١ في جبيل الذي يعود إلى العصر الحجري الحديث المبكّر (Dunand 1973: Tome V: Plates, Pl. XIV: 3) .

الصورة ١٢:
البيت ٤٦–١٧ الذي يعود إلى الحجري الحديث الأوسط في جبيل
(Dunand 1973: Tome V: Plates, Pl. XXIII: 3).

الصورة ١٣:
البيت ١٥–٣٥ الذي يعود إلى العصر الحجري الحديث المتأخّر في جبيل
(Dunand 1973: Tome V: Plates, Pl. XXX: 4).

الحياة في جبيل خلال العصر الحجري الحديث:

امتدّت الحياة اليوميّة في مستوطنة جبيل خلال العصر الحجري الحديث إلى المناطق الساحليّة والداخليّة المحيطة بها. ولكي نوضح ما إذا كان الرجال والنساء يتشاركون أنماط حياةٍ مماثلة، من الضروري إجراء دراساتٍ على الأنظمة الغذائيّة القديمة من خلال فحص الهياكل العظميّة البشريّة المكتشَفة. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ التحقيق في معدّلات وفيّات الرّضَّع وإجراء التحليلات الأنثروبولوجيّة على الرّفات البشريّة يُمكن أن يوفّر نظرةً ثاقبةً جديدةً حول الصحّة العامّة ورفاه سكّان جبيل في العصر الحجري الحديث.

وفي القرية، كانت تتجمّع الحجارة أو تتراكم هنا وهناك، وكانت تُستخدم بعض الجدران منخفضة الارتفاع كمقاعد. كما كان حجر الرّحى ومقبضه يُستخدمان لطحن الحبوب، والمنضدة الحجريّة الصغيرة لمهامّ مختلفة، ومواقد النار جلبت الحياة إلى محيط المساكن. ويبدو أنّ الصخور كانت تظهر في كلّ مكانٍ تقريباً، باستثناء المناطق المسطّحة وفي المنخفضات التي تنتشر فيها طبقات الأرض الحمراء (Dunand, 1973: 29).

الصورة ١٤:
إعادة بناء صوريّة لامرأتين من العصر الحجري الحديث تصنعان الفخّار في جبيل (الصورة أنشأتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

الصورة ١٥:
إعادة بناءٍ صوريّة لرجلٍ من العصر الحجري الحديث يصنع أدوات الصوّان في جبيل (الصورة أنشأتها ندى الياس بواسطة تقنية توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

وكان سكّان جبيل يصنعون الأدوات من الصوّان والعِظام، بالإضافة إلى صناعة الموادّ الفخاريّة، حيث استُخدمت هذه الموارد لأغراضٍ عمليّةٍ وبغية العيش والاستمرار على قيد الحياة، كما ساهمت أيضاً في صنع أشياء معقّدة، بما في ذلك النّقوش والزخارف الحيوانيّة والمجسّمات. وكان يُستقدم الصوّان المستخدم لهذه الأغراض من مصادر قريبةٍ في وادي البنات الذي يحتوي على مقالع في الهواء الطّلق.

وفيما يتعلّق بالفخّار، فقد تميّز خلال العصر الحجري الحديث المبكّر ببساطة شكله. وكانت تتميّز الزخرفة، الموجودة على كلٍّ من الفخّار البيج الفاتح وأحياناً الفخّار الداكن، بطبعاتٍ مبعثرةٍ تمّ تكوينها باستخدام صدَفة كارديوم (باستخدام ظهر الصّدَفة). وقد غطّت هذه الطبعات أواني الفخّار بأكملها. ومع الانتقال إلى العصر الحجري الحديث الأوسط، أصبح الفخّار متوافراً بكميّاتٍ أكبر وبشكلٍ ملحوظ، وبات يتّخذ أشكالاً وزخارف أكثر تعقيداً. وقد تزيّن هذا الفخّار بطبعاتٍ مميّزة، ولكن بدون استخدام الكارديوم. وفي العصر الحجري الحديث المتأخّر، ظهرت تحوّلات بارزة في أسلوب صناعة الفخّار، وأصبحت التصاميم متواضعةً بشكلٍ كبير، وخاليةً من اللمعان والخطوط والزخارف المبهرة **(الصور ١٤–١٧)**.

وخلال العصر الحجري الحديث المبكّر، اكتشف دونان مجموعةً من اللُقى الأثريّة أثناء عمليّات التنقيب: يوفّر الفخّار الأبيض المصنوع من مزيجٍ من الجير والسيليكا، والمجسّمات المحفورة في الحصى، لمحاتٍ عن التصاميم الفنيّة والرمزيّة التي كانت تتغنّى بها هذه الفترة.

وفي العصر الحجري الحديث الأوسط، اكتشف دونان المجسّمات المحفورة في الحصى، ممّا يدلّ على الاستمرار في الاهتمام بالمواضيع الفنيّة الرمزيّة. بالإضافة إلى ذلك، لم تتغيّر صناعة الأدوات العظميّة، كدليلٍ على الحرفيّة المستمرّة في هذه الفترة. وبالانتقال إلى العصر الحجري الحديث المتأخّر، أسدل دونان الستار عن مجموعةٍ من اللُقى الأثريّة المميّزة مثل: القلادات المصنوعة من الحجر الصّلب، التي تسلّط الضوء على المهارة العالية التي يتمتّع بها السكّان وحسّهم الفني المتطوّر. وتشير مجموعة الأوعية والرؤوس البازلتيّة الكرويّة إلى مختلف استخداماتها لأغراضٍ وظيفيّةٍ واحتفاليّة **(الصورة ١٧)**.

وعند تفسير الجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة للأدوات المستخدمة في العصر الحجري الحديث المبكّر، يصبح من الواضح أنّ الصناعة الحجريّة في هذا العصر عكست النشاطَين الأساسيَّين الممارسَين في القرية: الزراعة والصّيد المستمرّ. وشهدت هذه الفترة تطبيق الممارسات القديمة بأساليب حرفيّةٍ جديدة، ممّا أتاح تكييف الأدوات المستخدمة سابقاً لتُستخدم في مجموعةٍ واسعةٍ من الحالات، وبالتالي تصبح أكثر مرونة (Cauvin, ١٩٦٨ : ٩٣–٩٤). **(الصّور ١٥– ١٧)**.

وفي العصر الحجري الحديث الأوسط، تمّ توثيق ٤٩٤ أداةً حجريّةً فريدة، حيث شهدت هذه المرحلة توسّعاً إبداعيّاً كبيراً في صناعة الأدوات. ففي حين ظلّ الاقتصاد الأساسي ثابتاً نسبيّاً، مقتصراً على مجالَي الزراعة والصّيد، تجلّى التقدّم التكنولوجي بشكلٍ ملحوظ، ويُعزى ذلك على الأرجح إلى زيادة التنقّل بين المجموعات البشريّة وعمليّات التبادل المكثّفة. ومن اللافت للنظر وجود مؤشّراتٍ على التخصّص في الأعمال الخشبيّة (Cauvin, ١٩٦٨ : ١٢٥).

في العصر الحجري الحديث المتأخّر، ارتبط التوافر المحدود لأسلحة الصوّان ارتباطاً وثيقاً بتطوّر تدجين الحيوانات، ممّا يشير إلى التحوّل التدريجي عن ممارسات الصّيد. بالإضافة إلى ذلك، ونظراً لقرب الغابات من المستوطنة، كانت هناك زيادة ملحوظة في استعمال الأخشاب لأعمالٍ حرفيّة.

كما أشارت صناعة الأدوات العظميّة إلى استمراريّة أنشطة صيد الأسماك في جميع حقبات العصر الحجري الحديث **(الصّور ١٦ –١٧)**.

الصورة ١٦:
إعادة بناءٍ صوريّة لرجالٍ من العصر الحجري الحديث يصطادون الأسماك في جبيل (الصورة أنشأتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

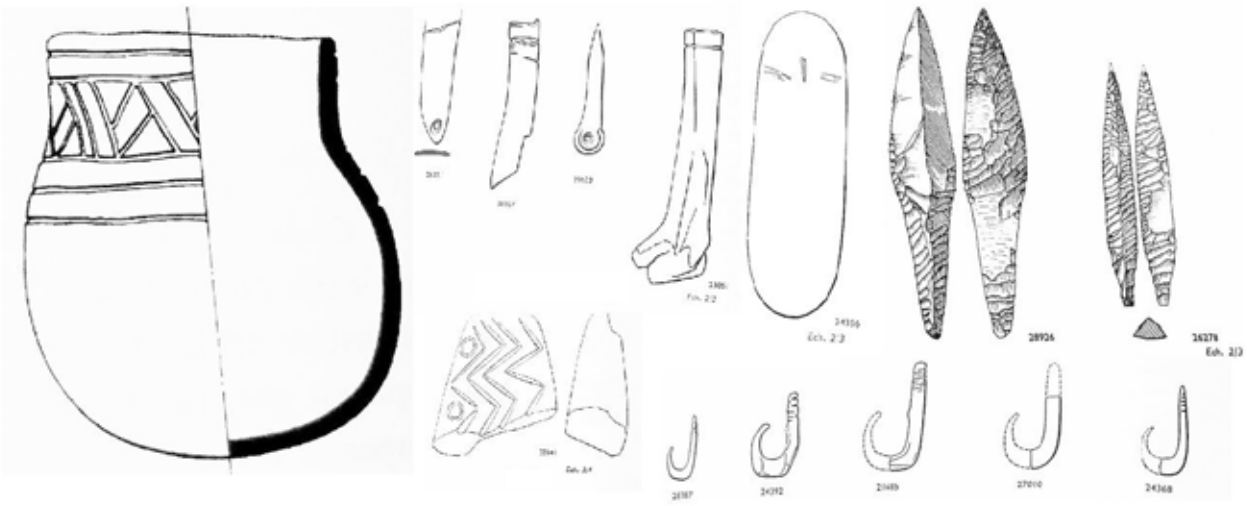

MIDDLE NEOLITHIC

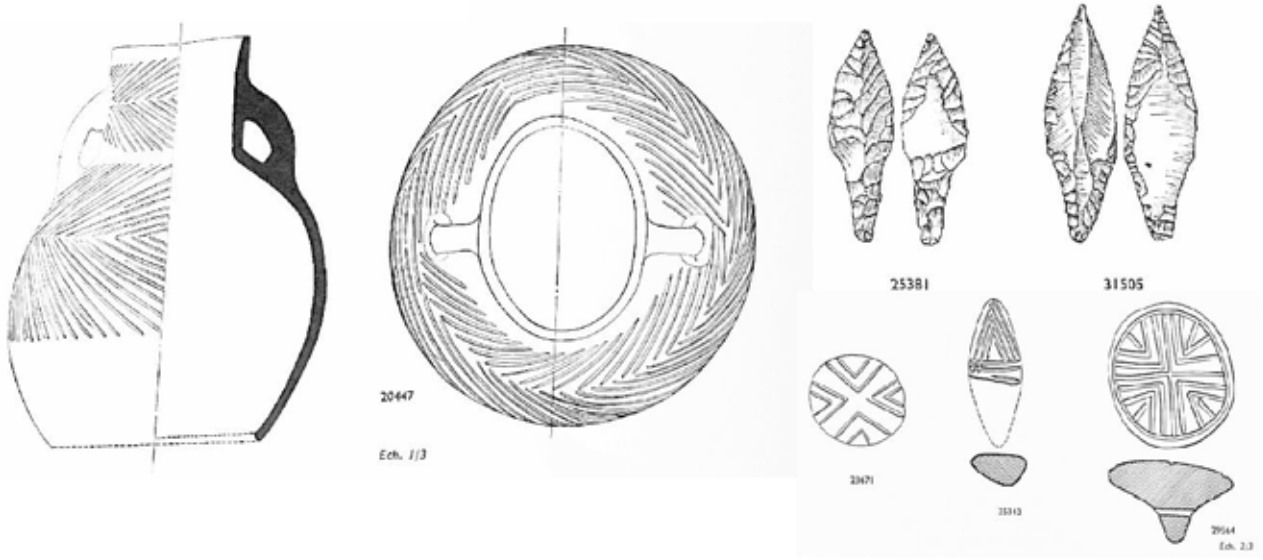

LATE NEOLITHIC

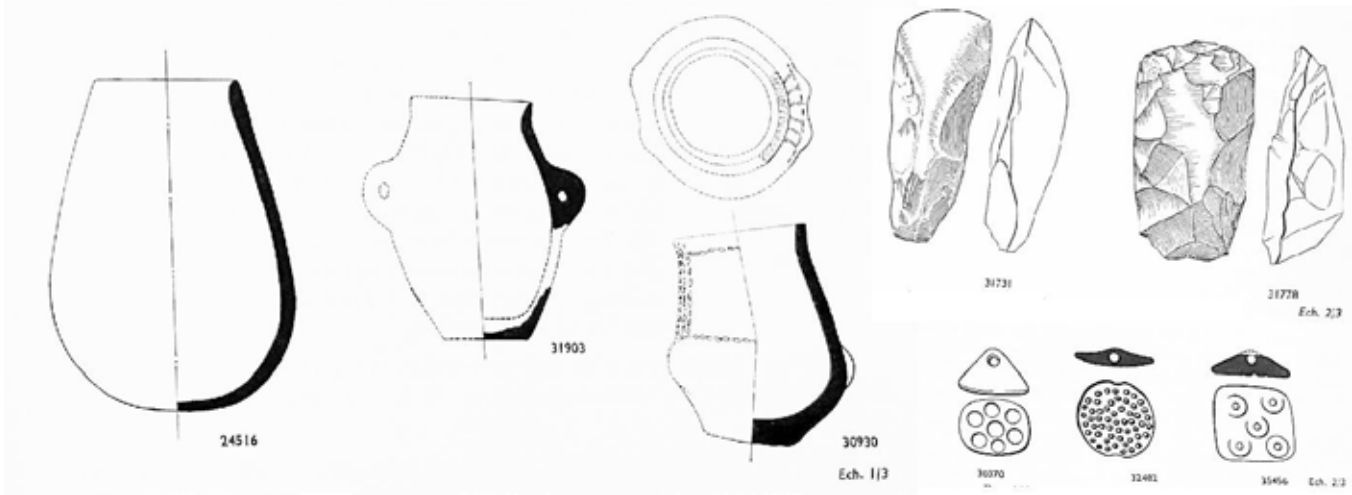

الصورة ١٧:
مجموعة متنوّعة من اللّقى الأثريّة التي تمّ العثور عليها في جبيل بما في ذلك الأدوات المصنوعة من الصوّان والعظام والمجسّمات المحفورة في الحصى والأختام (Dunand, 1973).

شعائر الموت في جبيل خلال العصر الحجري الحديث:

تشتمل الطقوس المدفنيّة على جميع الترتيبات التقنيّة والطقوسيّة التي يقوم بها مجتمع أو جماعة معيّنة عند وفاة أحد أفرادها (Forest, 1983: 7). ويملك كلّ مجتمعٍ أو جماعة نظاماً خاصّاً للقيام بالطقوس المدفنيّة وفقاً لنظامٍ رمزيٍّ يعكس بنيته الاجتماعيّة ومعتقداته الدينيّة. بدأ إنسان ما قبل التاريخ بدفن موتاه منذ العصر الجليدي، ولكن، ظهرت الممارسات المدفنيّة المعقّدة مع إنسان النياندرتال والإنسان العاقل. وتُشير هذه الممارسات إلى أنّ إنسان ما قبل التاريخ كان يتساءل عن أسرار الموت، وبدأ في اختراع طقوسٍ تساعده على التغلّب على حتميّة الموت متّبعاً ممارساتٍ غير مألوفة (سلامة – سركيس، ٢٠١٢: ٧٢).

وُتشير الطقوس التي كان يتّبعها إنسان العصر الحجري الحديث إلى أنّه كان يؤمن بنوعٍ من الوجود بعد الموت: فلماذا يحتاج الإنسان إلى الأشياء والحاجات الشخصيّة أو الطقسيّة التي تُدفن معه بعد الموت؟ هل هذا إيمان بـ "ما بعد الوجود"؟ من المحتمل أنّ وجود ممتلكات المتوفّي المدفونة معه يدلّ على الاعتقاد بالبقاء على قيد الوجود بعد الوفاة (Leroi-Gourhan, 1964: 62-63, Eliade, 1984: 21)ولماذا تشبه معظم وضعيّات دفن الشخص المتوفّى في العصر الحجري الحديث وفي جبيل، وضعيّة الجنين داخل رحم أمّه **(الصورة ١٨)**؟ تشير هذه الوضعيّة إلى أنّ الموت ربّما كان يُعتبر بمثابة ولادةٍ جديدةٍ عبر العبور في الأرض. هل كانت المدافن في العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى تحت المنازل أم بعيداً عنها، كما هو الحال حاليّاً؟ قد يكون لهذه السلوكيّات والطقوس الدفنيّة دور يتجاوز الواقع المادّي، ويدخل في إطار الشعائر الدينيّة.

تمّ اكتشاف أكثر من ٣٠٠ موقعاً من العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى تحتوي على مدافن تحت أرضيّات المنازل في الأناضول والمشرق العربي الشمالي والمشرق الجنوبي والجزيرة العراقيّة وقبرص، وتعود بدايةً إلى الثقافة النطوفيّة، مروراً بالعصرَين الحجريَّين الحديثَين ما قبل الفخاريَّين أ وب، وصولاً إلى العصر الحجري الحديث الفخّاري والنّحاسي **(الصورة ١)**. كانت هذه المدافن تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من المنزل. لكن، في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّاري المبكّر، كان يتمّ تخصيص مساحاتٍ محدّدةٍ للدّفن أيضاً، منها المباني المدفنيّة الجماعيّة التي يُدفن فيها الجميع بدون استثناء. بعدها، في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخّاري المتأخّر، باتت مواقع الدفن تُقام خارج المساكن، ضمن عددٍ من المواقع في الشرق الأدنى.

كان من الصعب حلّ المسائل المتعلّقة بالطقوس المدفنيّة التي تعود إلى العصر الحجري الحديث في جبيل، وبالأخصّ المواضيع المتعلّقة بجنس المتوفّي أو العلاقة بين المنازل

الصورة ١٨:
رسم توضيحي طبّي لجنينٍ داخل رحم أمه (جوناثان دايمز لـ BabyCenter).

والمدافن. في الحقيقة، لا بدّ من إجراء نوعَين من الدراسات من أجل التمكّن من الإجابة على هذه الأسئلة. يتطلّب النهج الأوّل مراجعةً معمّقةً وشاملةً لأرشيف دونان، من أجل تحليل العلاقة بين المنازل والمدافن. ولا بدّ أيضاً من التحقّق من نوع المدافن وطبيعتها، ولكن الأهمّ في حالة المدافن الموجودة في قلب المنازل، أن يتمّ تحديد ما إذا كانت هذه المدافن قد وضعت خلال مرحلة بناء المنزل، أو أنّها قد أضيفت لاحقاً إلى أرضيّة المنزل الداخليّة خلال فترة الإقامة فيه، أو أنّها قد وضعت فيه فقط بعد أن تمّ هجره. علاوةً على ذلك، لا بدّ من إجراء تحليل أركيولوجيا الموت للمدافن من أجل فصل ما يتعلّق بالإيماءات المدفنيّة عمّا ينتج عن ظواهر التحلّل داخل المدفن ومن أجل تحديد وضعيّة الميت والتحقّق من إمكانيّة وجود أيّ حاوياتٍ أو أكفان استخدمت في عمليّة الدفن ولكن تحلّلت ولم يبقَ منها أثر مادّي. أمّا النهج الثاني فيجب أن يكون بيولوجيّاً، على الأقلّ لأجل تحديد العمر الذي توفّي فيه الشخص وجنسه، والتحقّق من إمكانيّة ربط أيّ طقوسٍ مدفنيّةٍ محدّدةٍ بعمرٍ أو جنسٍ معيّنَين. ولكن بجميع الأحوال، أتاحت لنا إعادة النظر في نتائج تنقيبات دونان في جبيل المنشورة، أنّ نوضح بعض المعلومات الأساسيّة عن الطرق والطقوس المدفنيّة في العصر الحجري الحديث في المنطقة. مع ذلك، وكما ذكرنا سابقاً، فلا بدّ من إجراء مزيدٍ من الدراسات الأركيو–أنثروبولوجيّة من أجل فهم الطقوس المدفنيّة في العصر الحجري الحديث في منطقة جبيل بالكامل، والتحقّق من الميزات البيولوجيّة الخاصّة لتلك المجتمعات.

خلال العصر الحجري الحديث المبكّر، كانت الممارسات المدفنيّة تقضي بإبقاء المتوفّي قريباً من مجتمعه، وكان له دور هامّ فيه حتّى بعد وفاته. فقد كان الموتى يُدفنون بالقرب من المنازل في قبورٍ بعمقٍ متوسّط، يكون الهدف منها ألّا ينزعج الأحياء من حال الموتى، أو تنجذب الحيوانات التي تقتات على الجيَف إليهم. وكان بعض الأشخاص يُدفنون أيضاً تحت أرضيّات المنازل. وعادةً ما كان المتوفّي يوضع في وضعيّة الجنين في حفرةٍ مدفنيّةٍ بسيطة، مع عددٍ قليلٍ من اللُقى أو بدون أيٍّ منها حتّى. وقد تمّ اكتشاف ٣٣ مدفناً فرديّاً أوّليّاً، وقُسّمت إلى ٣ أنواع:

المدافن المكوّنة من حفرةٍ مدفنيّةٍ بسيطةٍ في التراب بدون أيّ حاويةٍ ظاهرة (٢١ مدفنًا):

لا يعتمد هذا النوع من المدافن جهة دفنٍ معيّنة، ولكن يتمّ دفن الشخص في وضعيّة القرفصاء (الجنين في رحم الأمّ)، بحيث يكون الهيكل العظميّ مكتوفاً جدّاً، ومستلقياً على جانبه الأيسر، فيما تكون اليدان موضوعتَين نحو الصدر، والرّكبتان على مستوى الحوض. وتحتوي بعضٌ من هذه المدافن على عددٍ قليلٍ من اللُقى المدفنيّة، ولا سيّما الفؤوس أو السّكاكين المصنوعة من الصوّان والأوعية الفخاريّة المزخرفة. ومن المهمّ تحليل الممارسات المدفنيّة الماضية بالتدريج بالاطّلاع على كلّ مدفنٍ عن كثب، لنستطيع إعادة بناء قصّة كلّ مدفنٍ ومعرفة نوع الحاوية أو الكفن التي تحلّل في حال وجودهم. وتجدر الإشارة أنّه يجب اعادة دراسة أرشيف التنقيبات والصور لكل مدفن من هذا النوع لإعادة بناء نوع الحاوية أو الغلاف إنّ كان موجودًا وقت الدفن.

المدافن المحاطة بحجارةٍ على هيئة مهد (٧ مدافن):

لقد تمّ التوصّل إلى تقنيّةٍ جديدةٍ في الدفن، تنطوي على مدافن على شكل مهدٍ دائري **(الصورة ١٩)**. كان المتوفّى يوضع في وضعيّة الجنين/القرفصاء ضمن المدفن المحوّط من الحجارة المنصوبة بشكلٍ عمودي. هذه الممارسة توحي بلجوء المجتمعات القديمة إلى ايماءاتٍ أكثر عنايةً بدفن أحبّائهم (Jidejian, 1968: 10). وقد تمّ رصف أرضيّة المدافن المحوطة بحجارةٍ على هيئة مهد، بحصىً صغيرة، كلّ منها بحجم قبضتَين تقريباً، يحيط بها صفٌّ من الحصى الدائريّة نوعاً ما، يبلغ قطرها ١٥ إلى ٢٠ سنتم كحدٍّ أقصى. وكان المتوفّى يوضع في هذه المدافن في نفس الوضعيّة المخصّصة للمدافن المكوّنة من حفرةٍ مدفنيّةٍ بسيطةٍ في التراب، بيد أنّها كانت تُرفق في العادة بعددٍ أكبر من اللُقى المدفنيّة، بما فيها المتاع الشخصيّة أو الطقسيّة من أواني فخاريّةٍ وغيرها(Dunand, 1973: 30) .

الصورة ١٩:
مدفن محاط بحجارةٍ على هيئة مهد (Dunand, 1973: Pl. XXXVI - 1).

المدافن في جِرارٍ من الفخّار للأطفال غير البالغين:
تمّ اكتشاف خمسة مدافن فقط من هذا النوع في طبقات المستوطنة الأولى، وكانت مخصّصةً للأطفال حصراً. على سبيل المثال، كان المدفن رقم ٦٨٢ يحتوي جرّةً كبيرةً مزيّنةً بزخارف منقوشة، ولكن غير مكتملة، وترتكز على قطعةٍ صغيرةٍ من الأرضيّة المطليّة. واحتوت هذه الجرّة على هيكلٍ عظميٍّ محفوظٍ لمولودٍ جديد. وفي مثالٍ آخر، في الجزء الشرقي من المسكن ٢٢–٥١، تمّ دفن مولودٍ جديدٍ داخل جرّةٍ من فخّارٍ مزيّنةً بزخارف صدَفيّةٍ منقوشة.

بعض جوانب الطقوس المدفنيّة خلال العصر الحجري الحديث المبكّر:
كشف وجود اللُقى المدفنيّة في بعض المدافن أنّ الإنسان في العصر الحجري الحديث المبكّر قد حدّد مفهومه للوجود ما بعد الموت. وكما في تجربته على الأرض، اعتقد أنّ الطعام والحماية ضروريّان حتّى بعد الموت، ومن هنا نفسّر وجود التمائم والحليّ في المدافن. ووجب على الأحياء مساعدة الموتى، ليوفّروا لهم الراحة في حياتهم الثانية، كما لمنعهم من العودة سواء بالروح أو بغير ذلك إلى الحياة على الأرض. وقد أدّى هذا الاعتقاد إلى تعزيز التواصل العاطفي بين الأحياء والأموات، وأبقاهم متّحدين ضمن المجتمع نفسه (Dunand, 1973: 32).

وتمّ اكتشاف أنواعٍ متعدّدةٍ من المدافن، بما فيها تلك المحفورة في الأرض بدون أيّ حاويةٍ ظاهرة، والمدافن المحوطة بحجارةٍ على هيئة مهد، والمدافن في جِرارٍ من الفخّار خلال العصر الحجري الحديث الأوسط، تماماً كما جرى مع المستوطنات الأقدم، ومع ذلك، فإنّ توزيعها النسبي ليس موحّداً. بالإضافة إلى ذلك، بدت أكثر كثافةً من حيث العدد وقرب المسافة بينها (Dunand, 1973: 98). ويبلغ إجمالي عدد هذه المدافن ٢٦ مدفناً فرديّاً وجماعيّاً، بالإضافة إلى مبنى مدفنيٍّ جماعي.

المدافن المكوّنة من حفرةٍ مدفنيّةٍ بسيطةٍ في التراب بدون أيّ حاويةٍ ظاهرة (نوعان):
تمّ اكتشاف نوعَين من هذه المدافن؛ المدافن المنفردة (١١ مدفناً) والمدافن داخل المبنى ٤٦–١٤، والتي منحها دونان أهميّةً دينيّة (Dunand, 1973: 99).
وتكوّنت المدافن المنفردة من ١١ مدفناً للبالغين وللأطفال، وهي إمّا مدافن فرديّة أوّليّة يحتوي كلّ منها على هيكلٍ عظميٍّ لشخصٍ تمّ وضعه على جنبه أو في بعض الأحيان على ظهره، ولكنّه في كلتا الحالتين في وضعيّة الجنين ويداه أمام وجهه **(الصورة ٢٠)**. كما تمّ اكتشاف مدافن جماعيّةٍ تحتوي على جماجم مُعاد دفنها بجوار المتوفّى الأساسي كما هو الحال مع الدفن رقم ١٦٩٦.
وكشف دونان عن ٧ مدافن فرديّةٍ تحتوي على أفرادٍ كاملين، بالإضافة إلى مدفنَين فرديَّين لأفرادٍ بدون جماجمهم في مبنى المدافن ٤٦–١٤. علاوةً على ذلك، تمّ اكتشاف مدافن جماعيّةٍ في الغرفة رقم ٤١. ويعتقد دونان أنّ هذه الطقوس ترتبط بالتكريس أو الاسترضاء (Dunand, 1973: 100). لذلك، يجب التعمّق في أرشيف دونان بالتفصيل من أجل دراسة عدد الأفراد المدفونين في هذا المبنى وفهم وظيفته.

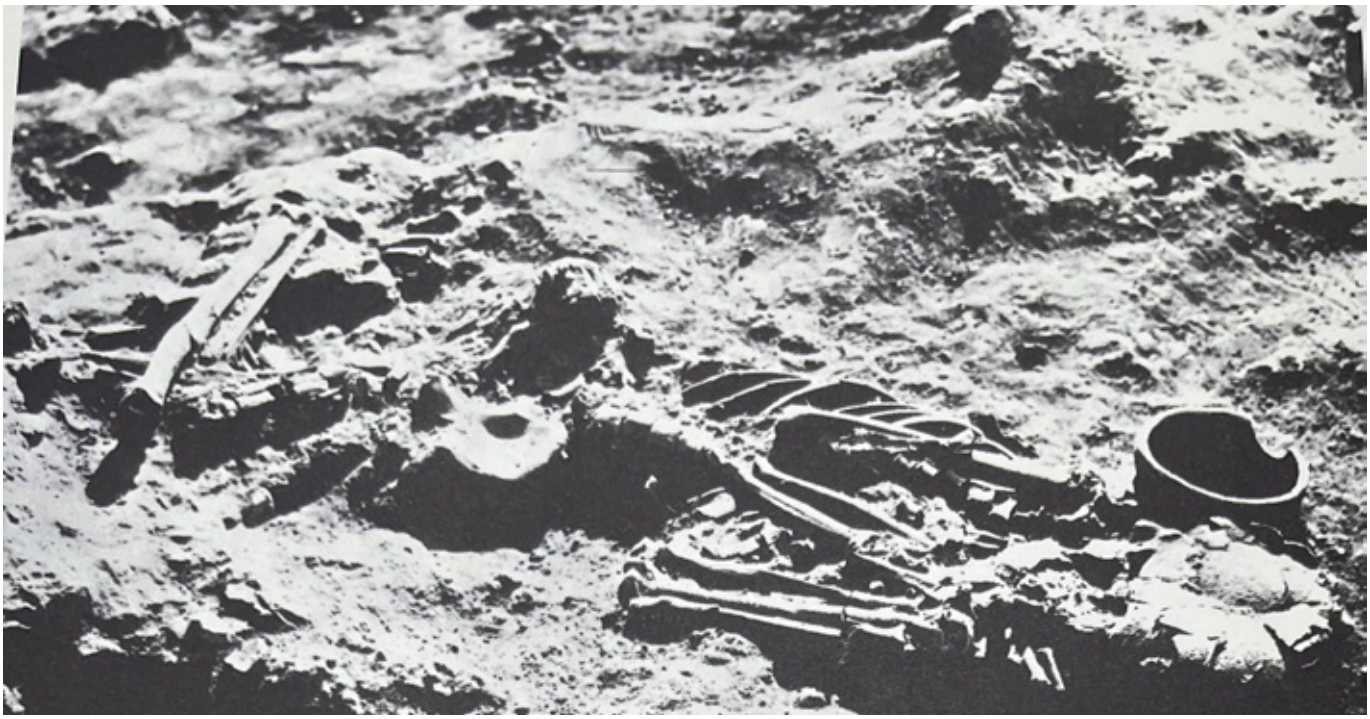

الصورة ٢٠:
المدفن الفردي ١٧٣٦، محفور في الأرض بدون أيّ حاويةٍ ظاهرة، وقد دُفن الفرد على جنبه الأيسر في وضعيّة الجنين، بيد أنّه وجدت إلى جانبه اللُقى الفخاريّة (Dunand, 1973: Pl. XL - 1).

المدافن المحاطة بحجارةٍ على هيئة مهد (٣ مدافن):
تمّ اكتشاف ثلاثة مدافن مع حجارةٍ دائريّةٍ خلال العصر الحجري الحديث الأوسط واحتوت جميعها على مدافن فرديّةٍ لشخصٍ راشد، ولمراهقٍ ولطفل.

المدافن في جِرارٍ من الفخّار للأطفال غير البالغين (١٥ مدفناً):
توسّع استخدام هذا النوع من إجراءات الدفن خلال هذه الفترة، لكنّه بقي محصوراً بالأطفال غير البالغين. وكانت هذه الجِرار تُستخدم لدفن الأطفال الصّغار وحديثي الولادة، واكتُشفت في الجزء الشرقي من المعلَم رقم ٤٦. وُضعت الجِرار مستقيمةً أو مائلةً قليلاً، وكانت تحتوي في العادة على طفلٍ صغيرٍ جدّاً، وبالأخصّ من حديثي الولادة. وكانت الأجسام تبدو عموديّةً بعض الشيء، بيد أنّها تبقى شبيهةً بوضعيّة الجنين بداخل الرّحم **(الصورة ٢١)**. ونعزو هذا التعامل برقّةٍ مع الأطفال إلى الرغبة في حمايتهم وصونهم، فيوضعون في حاويةٍ تشبه رحم الأمّ الآمن، أملاً بأن يولدوا من جديدٍ في الحياة الثانية.

الصورة ٢١:
إعادة بناءٍ صوريّة لجرّةٍ فخّاريّة من العصر الحجري الحديث استُخدمت للدّفن وتحتوي على طفلٍ حديث الولادة دفن في جبيل (الصورة أنشأتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

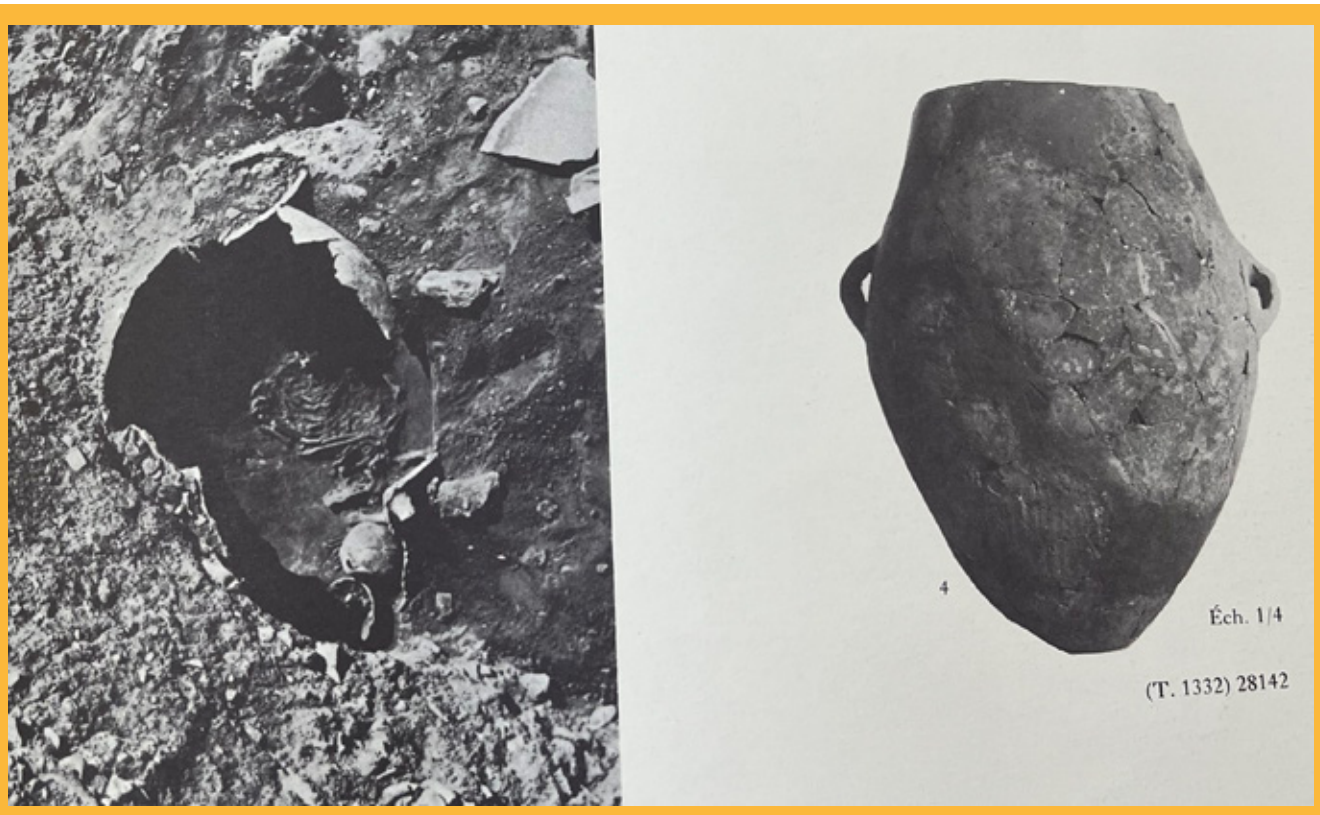

الصورة ٢٢:
مدفن فردي (١٣٣٢) لطفلٍ في جرّةٍ (Dunand, 1973: Pl. XLI – 3-4).

خلال العصر الحجري الحديث المتأخّر، تمّ العثور على ١٩ مدفناً، أبرزها مدافن مكوّنة من حفرٍ مستديرةٍ بدون حاويةٍ ظاهرة. ولكن لم يتمّ العثور على المدافن المحاطة بحجارةٍ على هيئة مهد، بل وُجد مثلاً شخص مدفون على أرضيّةٍ بسيطةٍ من الحجارة بدون حرف، أو في موضعٍ محاطٍ بالحجارة بشكلٍ دائريٍّ ولكن دون أن يكون مرصوفاً. غير أنّنا نفتقر إلى معلوماتٍ هامّةٍ عن تسلسل الطبقات الأثريّة ومواقع هذه المدافن الدقيق، باستثناء معرفتنا بأنّ الأشخاص دفنوا في المكان نفسه الخاصّ بمساكن العصر الحجري الحديث المتأخّر على السفح الجنوبي للتلّة المرتفعة.

المدافن المكوّنة من حفرةٍ مدفنيةٍ بسيطةٍ في التراب بدون أيّ حاويةٍ ظاهرة (٦ مدافن):
تمّ اكتشاف ستّة مدافن من هذا النوع فقط، ووُجد فوق أحدها لوح حجريّ مسطّح المستقيم وُضع غالباً لتحديد موقع المدفن وتذكير الأحياء بالميت الذي رحل عنهم (Dunand, 1973: 136). وتحتوي هذه المدافن الفرديّة على أشخاصٍ راشدين أو أطفال، جميعهم في وضعيّة الجنين، وقد اكتُشف معهم بعض القطع الأثريّة المصنوعة من الحجارة أو الفخّار.

المدافن ذات الأرضيّة الحجريّة (مدفن واحد):
تمّ دفن شخصٍ واحدٍ على أرضيّةٍ صلبةٍ مرصوفةٍ بالحجارة. وكان هذا المدفن يحتوي على١٤أداةً حجريّةً وثلاث أصدافٍ وحصوةٍ منقوشة.

المدافن المحاطة بالحجارة (٤ مدافن):
تمّ العثور على أربعة مدافن من هذا النوع تعود إلى العصر الحجري الحديث المتأخّر. فعلى سبيل المثال، يتألّف المدفن ١٨٧٠ من سياجٍ حجريٍّ مستطيلٍ بطول ٠،٩١ متر وعرض ٠،٦٠ متر مؤلّفٍ من عدّة احجار، وُضع داخلها شخصٌ راشد في وضعيّة الجنين نحو الشرق، وكانت ركبته اليمنى متّجهةً نحو بطنه ويداه موضوعتَين فوق وجهه. أمّا في حالة المدفن ١٢٥٣، فقد كان السياج الحجري يتمتّع بشكلٍ بيضاوي، بقطرٍ يبلغ ١،٢٥ متر كحدٍّ أقصى. وفي أمثلةٍ أخرى، تمّ تصميم الحجارة بشكلٍ مستدير (Dunand, 1973: 136).

المدافن في جِرارٍ من الفخّار للأطفال غير البالغين (٩ مدافن):
استمرّ استخدام هذا النوع من المدافن خلال هذه الفترة، ولكنّه بقي محصوراً بالأطفال غير البالغين. كانت هذه الجِرار تُستخدم لدفن الأطفال حديثي الولادة، وإحدى هذه الجِرار الفخاريّة لا يتعدّى طولها ٢٠ سنتم، وقد دُفنت مستقيمة (المدفن ١٣٨٢). وبلغ الطول الأقصى لهذه الجِرار ٤٠ سنتم، وبهذا لم تكن تتّسع سوى لطفلٍ واحد **(الصورة ٢٢)**. استمرّ اتّباع هذه الطقوس المدفنيّة في العصر النّحاسي، وتطوّرت إلى أن بات حتّى الراشدون يُدفنون في مثل هذه الحاويات في الفترات اللاحقة.

الخاتمة:

احتضنت البيوت في العصر الحجري الحديث في جبيل جزءاً كبيراً من الحياة الاجتماعيّة للمقيمين فيها. وقد تمّ بناء الأكواخ/البيوت المستطيلة من الحجارة، وكانت تتألّف من غرفةٍ واحدةٍ في الفترات الأولى، أو عدّة غرفٍ إضافيّةٍ للتخزين مع منطقة معيشةٍ في العصر الحجري الحديث المتأخّر. شكّلت هذه الغرفة الواحدة مركز معظم الأنشطة الاجتماعيّة، منها أنشطة الطبخ أو الأنشطة الاجتماعيّة أو تلك المتعلّقة بالاسترخاء والراحة.

إلى ذلك، فقد تمّت عمليّات الدفن في المنازل وبالأخصّ تحت الأرضيّات في مناطق الجلوس والنوم في بعض الأحيان، وفي أوقاتٍ أخرى تمركزت بين البيوت أو في مواقع مهجورة.

وقد انتشرت ممارسات الدفن داخل المنزل خلال استخدامه في منطقة الشرق الأدنى، وقد اعتُمدت هذه الطرائق في جبيل أيضاً خلال العصر الحجري الحديث (٦٩٠٠ – ٥٧٠٠ ق.م.). وكان الموتى يُدفنون في مدافن تشبه المهود الحجريّة، أمّا الأطفال ففي جِرارٍ فخاريّةٍ بداخل المنازل المستطيلة (Artin, 2005: 12, 175, 195).

استمرّت هذه الممارسات خلال العصر النّحاسي (٤٥٠٠ – ٣٠٠٠ قبل الحاضر) ولكن في تلك الفترة، بدأ دفن الراشدين والأطفال على حدٍّ سواء بداخل الجِرار، ووضعهم في أرضيّة المنازل البيضاويّة (Artin, 2005 : 12-13, 175).

إذًا، كانت منطقة الدفن في جبيل خلال العصر الحجري

الصورة ٢٣:
إعادة ابتكار صورةٍ لرجلٍ من العصر الحجري الحديث في حالة حدادٍ فوق مدفنٍ في جبيل (الصورة أنشأتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

الصورة ٢٤:
إعادة بناءٍ صوريّة لمشهدٍ من مشاهد الحياة اليوميّة في مستوطنة جبيل في العصر الحجري الحديث (الصورة أنشأتها ندى الياس بواسطة تقنيّة توليد الصورة من خلال الذكاء الاصطناعي باستخدام Midjourney).

الحديث هي بداخل المنازل أحياناً، وتتمركز في أرضيّتها، كما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحياء. فكان الموتى يشغلون الجزء السفلي من المنزل فيما يتمركز الأحياء في الأعلى. وكان يمكن الوصول إلى المدفن من خلال أرضيّة المنازل، إذ كانت تُفتح للدّفن، ثمّ يتمّ إحكام إغلاقها بعده في كلّ مرّة. هذا يعني أنّ الدفن كان يُعتبر عملاً اجتماعيّاً يجري في قلب البيت، على غرار عمليّة الولادة. وكان هذا التقارب بين الموتى والأحياء يسهّل عليهم تقبّل فكرة الموت، إذ يزوّدهم بالراحة والاطمئنان، فيما ينامون فوق موتاهم؛ ويبقى الموتى في موقعٍ قريب، فلا تغيب ذكراهم (Elias, 2023).

بيد أنّه، في عصرٍ أقدم، برزت رغبة بدفن الأموات في موقعٍ مخصّصٍ لهم، وقد اكتُشفت هذه المواقع أسفل البيوت القديمة. في هذه الحالة، يمكن استخدام كلمة "مقبرة"، أو "مدافن الأساس". ثمّ تمّ بناء بيوتٍ فوق المدافن القديمة هذه. علاوةً على ذلك، بعد هجر البيوت، ظهر نوع آخر من تقاليد الدفن؛ فقد تمّ استخدام البيوت المهجورة كمواقع للدّفن أحياناً. ويمكننا أن نستنتج من هذا كلّه، أنّه في جبيل، ساهم الموتى والأحياء معاً في تنظيم المكان.

المراجع:

Angel, J. L., 1971. Early Neolithic skeletons from Çatalhöyük: Demography and pathology. Anatolian Studies, 21, 77–98.

Artin, G., 2005. La "nécropole énéolithique" de Byblos : nouvelles interprétations. Thèse de doctorat, l'Université Lumière Lyon 2, 3vol.

Artin, G., 2009. La "nécropole énéolithique" de Byblos : nouvelles interprétations. BAR international series 1993, England: Archaeopress, 219 p.

Artin, G., 2017. The Chalcolithic Period on the Lebanese Coast. Ann. Natturhist. Mus. Wien, Serie A, 120 : 471-484.

Aurenche, O. & Kozlowski, S. 1999. La naissance du Néolithique au Proche Orient, Paris, Errance, 256 p.

Bayliss, A., Brock, F., Farid S., Hodder, I., Southon, J., and Taylor, R. E. 2015. Getting to the bottom of it all: A Bayesian approach to dating the start of Çatalhöyük. Journal of World Prehistory, 28 :1–26.

Bocquentin, F., 2013. Organisation et gestion de l'espace funéraire en contexte de sédentarisation, Cahier des Thèmes transversaux ArScAn, XI : 92-95.

Cauvin, J., 1968. Les outillages néolithiques de Byblos et du littoral Libanais, Fouilles de Byblos IV, Paris : Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve.

Cauvin, J., 1972. Nouvelles fouilles à Tell Mureybet (Syrie) 1971-1972, Rapport préliminaire, Annales Archéologiques Arabes Syriennes, 22 : 105-111.

Cauvin, J., 1974. Troisième campagne de fouilles à Tell Mureybet (Syrie) en 1973, Rapport préliminaire. Annales Archéologiques Arabes Syriennes, 24 : 47-58.

Cauvin, J., 1978. Les premiers villages de Syrie Palestine du IXe au VIIe millénaire. Cahiers de la Maison de l'Orient 4. Lyon : Maison de l'Orient méditerranéen, 161 p.

Cauvin, J., 1997. Naissance des divinités, naissance de l'agriculture, CNRS éditions, Paris 310 p.

Duday, H., Courtaud P., Crubezy E., Sellier P. et Tillier A.-M., 1990. L'anthropologie « de terrain » : Reconnaissance et interprétation des gestes funéraires. Bulletins et Mémoires de la Société d'Anthropologie de Paris, 2 (3-4) : 29-50.

Duday, H., 2009. The Archaeology of the Dead: Lectures in Archaeothanatology, Oxbow books, 230 p.

Dunand, Maurice, 1939. Fouilles de Byblos, 1926-1932, Tome I, Paris : Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 2 vol : texte et planche.

Dunand, M., 1954. Fouilles de Byblos, 1933-1938, Tome II, Paris : Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve.

Dunand, M., Cauvin, J., 1968. Fouilles de Byblos. Les outillages néolithiques de Byblos et du littoral Libanais, Tome IV, Paris : Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve.

Dunand, M., 1973. Fouilles de Byblos. L'architecture, les tombes, le matériel domestique, des origines néolithiques à l'Avènement Urbain, Tome V, Paris : Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve. 2 vol : texte et planche.

Eliade M., 1984. Histoire des croyances et des idées religieuses, 1 : De l'âge de la pierre aux mystères d'Eleusis, Payot, Paris, 491 p.

Elias, N., 2023, in press, Quelques aspects des pratiques funéraires au Néolithique proche oriental : La gestion de l'espace à Çatalhöyük, Anthropologica Praehistorica 132.
Forest, J.-D., 1983. Les pratiques funéraires en Mésopotamie du cinquième millénaire au début du troisième, Étude de cas, Édition Recherche sur les Civilisations, Paris, 245 p.

Jidejian, N., 1968., Byblos through the Ages, Beirut: Dar El Machreq.

Hodder, I., 2006. The Leopard's Tale: Revealing the Mysteries of Çatalhöyük. Cambridge, London: Thames and Hudson, 288 p.

Hodder, I., 2010. Religion in the Emergence of Civilization: Çatalhöyük as a Case Study. Cambridge: Cambridge University Press, 360 p.

Hodder, I., & Meskell L., 2010. The symbolism of Çatalhöyük in its Regional Contex. In I. Hodder (éd.) Religion in the Emergence of Civilization: Çatalhöyük as a Case Study. Cambridge: Cambridge University Press: 33-72.

Hodder, I., & Pels ., 2010. History houses: A new interpretation of architectural elaboration at Çatalhöyük. In I. Hodder (éd.) Religion in the Emergence of Civilization: Çatalhöyük as a Case Study. Cambridge: Cambridge University Press: 163-186.

Hodder, I., 2012. Entagled. An Archaeology of the Relationships between Humans and Things, Wiley-Blackwell, p. 252.

Hodder, I., 2020. Consciousness, Creativity, and self at the Dawn of Settled Life, Cambridge University Press.

Hodder, I., (éd.), 2021. Peopling the Landscape of Çatalhöyük: Reports from the 2009-2017 Seasons. British Institute of Archaeology at Ankara, London, 200 p.

Leroi-Gourhan, A., 1964. Les religions de la préhistoire, Quadrige, Presses Universitaires de France, Paris, 156 p.

Maher, L. 2020. Hunter-Gatherer home-making? Building landscape and community in the epipaleolithic. In, I.

Montet, P., 1928. Byblos Et l'Egypte: Quatre campagnes de fouilles à Gebeil, 1921-1924, Paris : Librairie Orientaliste Paul Geuthner.

Renan, E., 1864. Mission de Phénicie, Paris: Imprimerie impériale, 2 vol : texte et planche.

Salamé-Sarkis, H., 2021. Introduction à l'histoire des religions, Kotob, Beyrouth, 327 p. (en arabe).

Yazbeck, C., Beaino, F., Chahoud, J. El-Richani, F., Azzam, K., Baydoun, R., El Morr, Z., Tengberg, M., Semaan, L., James, M., Ronn, Ph., 2020. Tabarja Wata Slam 100 (TWS100): a Multi-Period Pre-Pottery and Pottery Neolithic Site on the Lebanese Coast. Bulletin d'Archéologie et d'Architecture Libanaises, 20: 185-226.

Yazbeck, C., El-Richani, F., Chahoud, Arzouni, M., Artin, G & Quinn, P., 2020. Crouched skeletons, skull desposits, bone bundles and a funeral pyre. A Unique Easly-Middle PPNB funerary area from Tabarja Wata Slam 41 (TWS 41) Lebanon. Bulletin d'Archéologie et d'Architecture Libanaises, 20 : 227-257.

DISCLAIMER:
This publication has been produced with the financial assistance of the European Union under the ENI CBC Mediterranean Sea Basin Programme. The contents of this document are the sole responsibility of American University of Technology and can under no circumstances be regarded as reflecting the position of the European Union or the program management structures.The total budget for this project is 3.8 million euros with 90% EU contribution.

"The 2014-2020 ENI CBC Mediterranean Sea Basin Programme is a multilateral Cross-Border Cooperation (CBC) initiative funded by the European Neighbourhood Instrument (ENI). The Programme objective is to foster fair, equitable and sustainable economic, social and territorial development, which may advance cross-border integration and valorise participating countries' territories and values. The Managing Authority (MA) is the Autonomous Region of Sardinia (Italy). Official Programme languages are Arabic, English and French. For more information, please visit: www.enicbcmed.eu"
Statement about the EU: "The European Union is made up of 27 Member States who have decided to gradually link together their know-how, resources and destinies. Together, during a period of enlargement of 50 years, they have built a zone of stability, democracy and sustainable development whilst maintaining cultural diversity, tolerance and individual freedoms. The European Union is committed to sharing its achievements and its values with countries and peoples beyond its borders.